الجبهة الوطنية ومقاومة الفاشية

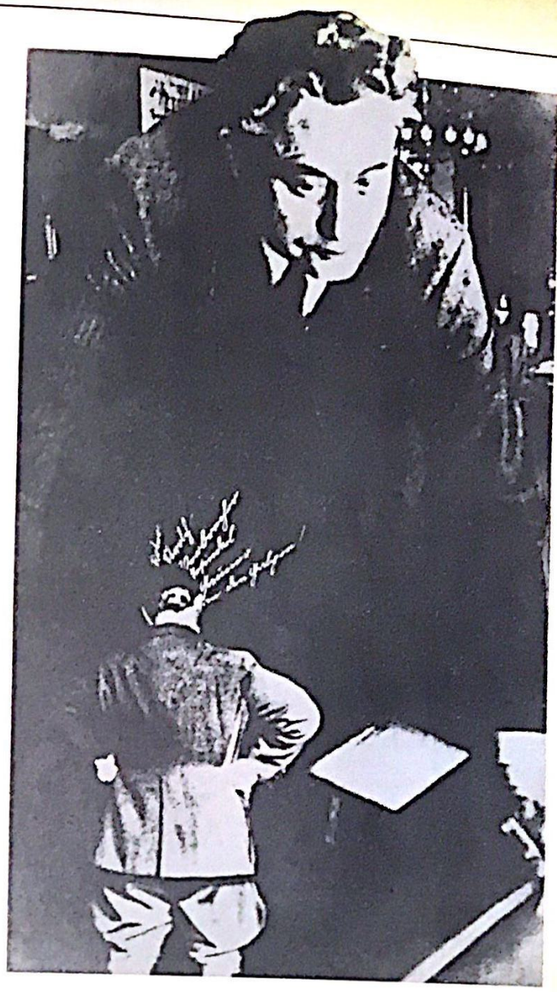

هذه هي الحلقة الثالثة من الدراسة التي يقدمها « الهدف » في أربع حلقات عن الحزب الشيوعي البلغاري والجبهة الوطنية الموحدة ، وهي دراسات تبدأ بمقال مسلسل مفصل ينشره خلال الطالباني في «الهدف» وستتابع نشر مناقشات وآراء حول هذه المسألة المحورية من مسائل الثورة ، تعني مسألة الجبهة الوطنية الموحدة .

وفي هذه الحلقة عرض للتجربة البلغارية ، التي قادها جورجي ديمتروف، اثناء النضال ضد الفاشية .

« الهدف »

انهمك الحزب الشيوعي البلغاري عمليا في انشاء الجبهة الوطنية ، وقد قامت بدايتها من الاسفل ، وذلك بتشكيل لجان الجبهةالوطنية في المدن والقرى ، وحتى نهاية عام ١٩٤٢ ، كانت قد تشكلت اكثر من ١٠٠ لجنة محلية للجبهة الوطنية ، وبدلالتوضعت اول خطوة في بناء الجبهة الوطنية .

« وكان انتشار حركة الجبهة الوطنية على صلة وثيقة بانتصارات الجيش السوفياتي التي اثارت الفاعلية السياسية لدى الجماهير الشعبية . واثرت انتصارات الجيش السوفياتي تاثيرا ايجابيا ايضا على انتشار حركة الانصار (تلك الحركة التي ساندها الكادحون . وقد وفر ذلك بدوره ، الظروف للتعجيل بتشكيل الجبهة الوطنية كحركة شعبية واسعة معادية للفاشية. وطبع منهاج الجبهة الوطنية ونشر على يد وحدات الانصار مختلف الاشكال . وقد ساعد ذلك ايضا على انشاء لجان الجبهة الوطنية ، التي ساعدت هي بدورها حركة الانصار .وهكذا تكونت في كل مكان علاقات متينة بين لجان الجبهة الوطنية وحركة الانصار .

وبتاثر انتشار حركة الجبهة الوطنية ، وضعت في النصف الاول من عام ١٩٤٢ اسس وحدة الشبية المناهضة للفاشية .

ومن نجاحات حركة الجبهة الوطنية ، كسب الجيش الى جانب منظمات الجبهة الوطنية . واشتد النشاط المعادي للحرب وانشاء لجان الجبهة الوطنية في الجيش . وكان ذلك برهانا على قوة منظمات الجبهة الوطنية .

وقد اطلقت سرعة تقبل فكرة تكوين جبهة وطنية ، وانشاء تلك الجبهة ، افلق الدوائر الفاشستية ، لان اللجان المحلية للجبهة الوطنية اصبحت في طليعة الجماهير للكفاح ضد الفاشية . وتزايد الحاجةباستمرارلكون اللجنة اللجبهة الوطنية التي تتراس وتقود حركة الجبهة الوطنية المتنامية في سائر ارجاء البلاد .

وبنتيجة تصميم الحزب في عمله وتحليله الماركسي – اللينيني للقوى الاساسية المعادية للفاشية في البلاد خلال صيف عام ١٩٤٢ ، تشكلتاللجنة الوطنية للجبهة الوطنية.وتكون تلك الجبهة ، حققت حركة الجبهة الوطنية انتصارا كبيرا .

وهنا لا بد من التاكيد على ان الجبهةالوطنية لم تكن باي شكل من الاشكال منظمة سياسية جديدة في بلغاريا فكل حزب سياسي او منظمة جماهيرية انضمت الى الجبهة الوطنية ، حافظت على استقلالها ومنهاجها وتنظيماتها . ولم يطلب من اعضاء الاحزاب المناهضة للفاشية الخلي عن عضويتهم في احزابهم . وكان يتاح لكل مواطن بلغاري شريف وكل عامل وفلاح وحرفي وموظف ومستخدم حكومي ، وللمنظمات الاقتصادية والرياضية والثقافية وللمثقفين التقدميين وكل رجال العلم والفن التقدميين ، الانتساب الى الجبهة الوطنية دون تمييز في القوميةاو العقيدة او النبعية السياسية . وكانت الجبهةالوطنية تمثل على حد تعبير غيورغي ديمتروف «... تحالف العمال والفلاحين والمثقفين والعسكريين الوطنيين والمراتب الديمقراطيه الاخرى » . وشكلتالجبهة الوطنية في المواقع لجانها فقط ، وهي لم تكن منتخبة بل تكونت من ممثلي الاحزاب المناهضة للفاشية والمنظمات الجماهيرية المنتسبة الى الجبهة الوطنية . وقد اتاح هذا التمثيل في لجان الجبهة الوطنية امكانية تعبئة اكبر جزء من الشعب في الكفاح ضد الفاشية . وكانتالنواة الاساسية لتنظيمات الجبهة الوطنية هي اللجان والمجموعات المحلية . وقد تشكلت في كل مكان ، في المعامل والمصانع والمناجم والاحياء والقرى والمدن ، وعلى العموم في كل مكان كانتالجماهير فيه مؤهلة للكفاح ضد الفاشية . وكانت لجان مجموعات الجبهة الوطنيـة تعمل سرا وتعتبر الاجهزة السرية للكفاح الشعبي التحرري.

ان انتصارات الجيش الاحمر وزحفه نحو دول البلقان في صيف عام ١٩٤٤ ساعد بحزم على اشتداد الازمة الثوريه في بلغاريا . وتبدلت علاقات القوى الطبقية بسرعة لصالح الثورة . ورص الحزب في الجبهة الوطنيـة كل القوى الوطنية والمعادية للفاشية تحت قيادة الطبقـة العاملة واقام كتلة سياسية جبارة ضدالفاشست الالمان وعملاءهم من البلغار . وحتى التاسع من ايلول – سبتمبر – عام ١٩٤٤ ، كانت قد تشكلت ودخلت حيز العمل حوالي ٧٠٠ لجنة للجبهـة الوطنية تضم حوالي اربعة الاف عضو . وكانت تعتبر كاجهزة قيادية لحركة مناهضة الفاشيـة التي نمت تحت قيادة الحزب كقوة سياسية جبارة .

وشكل الحزب ايضا قوة ضاربة مسلحـة للجماهير الشعبية المتراصة في الجبهة الوطنيه، وذلك هو جيش الانتفاضة الشعبي التحرري . وفي عشية التاسع من ايلول عام ١٩٤٤ كان هذا الجيش يتالف من فرقة واحدة وتسعة الوية و ٣٧ فصيلا وعدد من المفارز المستقلة ومئاتمن المجموعات المقاتلة . وكان يعاونه ٢٠ الف من المؤازرين والاعوان . ان الصفة المميزة للكفاح المسلح في بلغاريا ، هي ان حزبالعمالالبلغاري (الحزبالشيوعي) كان هو قائد ومنظمذلكالكفاح منذ البداية حتى النهاية .

وفي ظروف النضوج التام للوضع الثوري ، اصدرتاللجنة المركزية للحزب امرها التاريخي المرقم ٤ والمؤرخ في ٢٦ آب – اغسطس – عام ١٩٤٤ القاضي بوجوب قيام القيادات الحزبية والمنظمات والاعضاء بدعوة وتحريض كل القوى المعادية للفاشية ، على طرد الجيوش الهتلرية واسقاط السلطة الفاشستية ، واقامة حكومة الجبهة الوطنية والسلطة الشعبية الديمقراطية. وكانت المهام التي جاءت في الامر المرقم ٤ هي المنهاج الذي يستهدف مباشرة التحضير للانتفاضة المسلحة والقيام بها .

وكانت كل اجراءات الحزب والجبهة الوطنية الرامية الى الحل الثوري اللازمة تتجاوب مع التطور الداخلي والخارجي للبلاد . وعلى العموم كانت ظروف انتصار الانتفاضة المسلحة متوفرة. وكانت البلاد على اهبة الانفجار الثوريمباشرة.

وفي الثامن من ايلول – سبتمبر – عام ١٩٤٤، عقدت اللجنة المركزية للحزب اخر اجتماع سري لها . وبالاشتراك مع ممثلي رئاسة اركان جيش الانتفاضة الشعبي التحرري واللجنة الوطنية للجبهة الوطنية ، اتخذ القرار النهائي واصدرت التعليمات والاوامر المفصلة للقيام بالهجوم الكاسح .

وبموجب خطة اللجنة المركزية للحزب مع الانتفاضة المسلحة كانت القيادة الرئيسية تعتزم ان توجه الى العاصمة صوفيا ، بعد منتصف ليلة التاسع من ايلول – سبتمبر – عام ١٩٤٤ وبنتيجه ذلك استولت الجبهة الوطنية على السلطة في الساعة الرابعة صباحا ، وشكلت حكومة الجبهة الوطنية الجديدة .

وكانت الجبهة الوطنية سلاحا جبارا سدد الحزب في الاعداد للثورة الاشتراكية في بلغاريا وانجازها . فبواسطتها دعم الحزب وروسخ قيادي ، وضمن التحليف الجماهيري للطبقة العاملـة في كفاحها للاستيلاء على السلطة السياسية . وقد يسر ذلك الى حد كبير انتصار الثورة الاشتراكية في بلغاريا . واصبحت تحت راية الجبهة الوطنيـة الاجهزة الاولى للسلطةالشعبية الجديدة ، في الجيش البلغاري الجديد جنبا الى جنب مع الجيش السوفياتي ، في الحرب حتى النصر النهائي التام لالمانيا الهتلرية .

وتنفيذا لمنهاج الجبهة الوطنية ، تم القضاء على المنظمات الفاشستية وحكم على القادة الذين مارسوا سياسةالحكومات المعادية للشعب وعلى جلادي الشعب البلغاري . والغيت الكثير من القوانين الجمهورية الشعبية ومن دستورهم والى جانب ذلك ، اممت المؤسسات الصناعية والمناجم والمصارف والملكية الكبيرة في المدن وتم الاتجاه نحو اقامة الاقتصاد الاشتراكي الشعبي في المزارع التعاونية .

الجبهة الوطنية والبناء الاشتراكي

وفي نفس الوقت والى جانب تطور الطبيعة الثورية تم تحقيق الاهداف السياسية التي كانت مطروحة امام الجبهة الوطنية . وجرى تنفيذ منهاج الجبهة الوطنية الذي اعلن في عام ١٩٤٢ وابتدا تنفيذا رائعا حتى عام ١٩٤٧ . ولكنه لم يكد ليتوقف عند ذلك الحد . فلقد وجه الحزب الذي ساعده الشعب المتحد تحت راية الجبهة الوطنية ، وجه البلاد بشجاعة وثقة في طريق البناء الاشتراكي . وفي كل مرحلة من مراحل درب الاشتراكية ، كرس الحزب الشيوعي البلغاري ما يقتضي من الاهتمام للجبهة الوطنية كوسيلة نادرة مهمتها التاريخية .

وافضى بناء الاشتراكية التي توجه الشعب البلغاري نحوها ، افضى من الجبهة الوطنية تبني منهاج جديد واشكال واساليب جديدة في العمل .

ونظرا لتلك المتطلبات قامت الجبهة الوطنية في مؤتمرها الثاني الذي عقد في عام ١٩٤٨ بالتحول الى منظمة اجتماعية – سياسية ترتكز على الاسس التي طرحها غيورغي ديمتروف وتقرير امام المؤتمر . وكانعاد سياسي لمختلف الاحزاب والمنظمات الاجتماعية ، يكافح من اجل الفاشيةومن اجل الديمقراطية والاعمار الاشتراكي للبلاد ، تكونت الجبهة الوطنية كاكبر دعامة لسلطة الشعب وكمنظمة تقدم اكبر الجهود للتثقيف الاشتراكي للكادحين ولجلب الجماهير للمساهمة في ادارة البلاد .

واليوم ، وفي ظروف البناء الاشتراكي، تقوم الجبهة الوطنية بفضل النهج اللينيني للحزب الشيوعي البلغاري . ان الجبهة الوطنية هي التجارب الطويلة المدى للحزب في ميدان توحيد جبهة بروليتارية موحدة وشعبية واسعة ضد الامبريالية ولتحقيق انتصار الثورة الاشتراكية وبناء المجتمع الاشتراكي.والسؤال هنا هو دور الحزب الشيوعي البلغاري في الجبهة الوطنية وقيادتها . وهذا هو اسهامه في حشد الجماهير وتعبئتها حول فكرة الجبهة وبالتالي نقلها الى حيز الواقع العملي.

ومع هذا الانجاز المكثف لدور الحزب الشيوعي، علينا ان نتناول بانجاز نضال ديمتروف ومقاومته الباسلة للفاشستية على الصعيد العالمي، باعتباره سكرتيرا عاما للاممية الشيوعية (الكومنترن) .

ديمتروف المناضل الثائر

ان ديمتروف مناضل لم يعرف معنى للهزيمة، انه مناضل عنيد ، لا تلين له قناة .

على اثر الفشل الذي منيت به الانتفاضة المسلحة التي قادها الحزب الشيوعي البلغاري، في ايلول عام ١٩٢٣ ، ضد الانقلابيين الفاشيين، فر ديمتروف ومعه بعض المقاطع ، للدليل على روح ديمتروف النضالية الثورية ونفسه الطويل وايمانه بقضيةالطبقة العاملة وحتمية انتصارها:

ايها الرفاق الاعزاء

(ان اول كلمة نوجهها اليكم هي :

ارفعوا رؤوسكم ! فان الانتقام الدامي لاوباش الحرس الابيض الخائفين على سلطتهم ، لن يطفيء روح الثورة البلغارية الكادحة ! والهزيمة الفاشية (بالدعوة للاضراب العام والنضال المسلح) . لم خذلوها ... عند حديثه عن البروليتاريا الالمانية يتساءل قائلا : (وهل كان انتصار الفاشية في المانيا محتوما ؟ كلا ، فقد كان بمقدور الطبقةالعاملة الالمانية ان تحول دونها.

ولكن من اجل تحقيق ذلك كان عليها ان تنجح في اقامة الجبهة البروليتارية الموحدة المعادية للفاشية ، وان ترغم زعماء الاشتراكية الديمقراطية على وقف حملتهم على الشيوعيين، وقبول الاقتراحات المكررة التي قدمها الحزب الشيوعي من اجل عمل موحد ضد الفاشية .

وكان عليها عند هجوم الفاشية وعند تصفية الحريات البورجوازية الديمقراطية بصورة تدريجية من جانب البورجوازية ، الا تقنع بالقرارات اللفظية التي اتخذتها الاشتراكية الديمقراطية ، بل ان ترد بتمثال جماهيري حقيقي يجعل من الصعب تنفيذ الخطط الفاشية للبورجوازية الالمانية .)

وبعد ان اسهب في الحديث عن دور الاشتراكيين الديمقراطيين ابطال الاممية الثانية في شق وحدة الطبقة العاملة وتضليلها مما مكن الفاشية من الغفز على السلطة ، على الرغم من كونها لا تمثل سوى تسع واحد من مجموع السكان ... بعد ذلك يتناول اخطاء الاحزاب الشيوعيةوتعسراتها النضالية ، التي اسهمت في تمكين الفاشية من الوصول الى السلطة فيقول :

(ولا يسعنا في هذا الصدد ان نغفل العديد من اخطاء الاحزاب الشيوعية ، هذه الاخطاء التي عرقلت نضالنا ضد الفاشية . فقد كان يوجد في صفوفنا تهويلا غير جائز من الخطر الفاشي ، وهو تهويلا لم يصف في كل مكان حتى هذاللحظة . ان وجهات النظر التي كانت سائدة انذاك في اخزاننا ، من قبيل ان « المانيا ليست ايطاليا » بمعنى ان الفاشية استطاعت ان تنتصر في ايطاليا ، ولكن انتصارها في المانيا غير وارد، لان هذه بلاد صناعية عالية التطور ، عالية الثقافة ، تعود تقاليد الحركة العمالية فيها الى ٤٠ سنة ، والفاشية فيها مستحيلة ، او وجهات النظر الموجودة حاليا والقائلة بان بلدان الديمقراطية البورجوازية « الكلاسيكية » ليس فيها تربة للفاشية .

ان وجهات النظر هذه ساعدت وتساعد على اضعاف اليقظة ازاء الخطر الفاشي ، وهي تجعل من الصعب تعبئة البروليتاريا للنضال ضد الفاشية .

وفي الامكان كذلك ايراد عدد غير قليل من الاحوال التي بوغت فيها الشيوعيون بالانقلاب الفاشي . تذكروا بلغاريا ، حيث اتخذت قيادة حزبنا موقفا « محايدا » كان في الواقع موقفا انتهازيا ، ازاء انقلاب تاسخ من حزبران (يونيو) عام ١٩٢٣ . وتذكروا بولونيا حيث اخطاء قيادة الحزب الشيوعي في تقدير القوى المحركة للثورة البولونية ، ولم تتمكن خلال اياد (مايو) عام ١٩٢٦ ، من استجلاء الطابع الفاشي لانقلاب بيلسودسكي (١) ، وانجرت وراء الاحداث .

وتذكروا فنلندا حيث انطلق حزبنا من تصور خاطيء بشان زحف الفاشية التدريجي البطيء ، ولم ينتبه الى الانقلاب الفاشي الذي اعدته الكتلة القائدة للبورجوازية والذي فاجا الحزب والطبقة العاملة .

وعندما اصبحت القومية الاشتراكية في المانيا حركة جماهيرية متعاظمة ، كان ثمة رفاق ممن اعتبروا حكومة بريونتغ حكومة دكتاتوريةفاشية، وكانوا يصرحون بخيلاء : اذا زحف الرايخ الثالث الهتلري يوما ما ، فلن يمتد زحفه اكثر من متر ونصف تحت الارض ، اما فوقهـا ، فستقوم السلطة العمالية الظافرة .

ان رفاقنا في المانيا ظلوا لزمن طويل لا يقيمون وزنا للشعور القومي المهان ، ولاستياء الجماهير ضد « فرساي » واتخذوا موقف الاممالة من تذبذب الفلاحين والبورجوازية الصغيرة ، وتاخروا في وضع برنامج التحرر الاجتماعي والقومي ، وعندما طرحوه لم يتمكنوا من تطبيقه على حاجات الجماهير الملموسة ومستواها ، ولم يتمكنوا حتى من نشره بصورة واسعة بين الجماهير .

وفي بلدان عديدة استعيض عن خوض النضال الجماهيري اللازم ضد الفاشية بالنظنظة العقيمة حول طابع الفاشية « اجمالا » وبضيق الافق الانعزالي بخصوص صياغة مهام الحزب السياسية الملحة وانجازها .)

التراجع الانهزامي !

(اننا نتحدث عن اسباب انتصار الفاشية ونشير الى المسؤولية التاريخية التي تتحملها الاشتراكية الديمقراطية في هزيمة الطبقة العاملة، وننوه كذلك باخطائنا الخاصة في مكافحة الفاشية ، لا لمجرد اننا نريد نبش الماضي. فنحن لسنا بمؤرخين منقطعي الصلة بالحياة ، بل ان علينا ، نحن مناضلي الطبقة العاملة ، ان نجيب على السؤال الذي يؤرق ملايين العمال : هل يمكن الحيلولة دون انتصار الفاشية ؟ وباية طريقة ؟ ونحن نجيب ملايين العمال هؤلاء : اجل ايها الرفاق ، ان طريق الفاشية يمكن اعتراضه . هذا ممكن تماما ، وهو يتوقف علينا نحن، على العمال والفلاحين وسائر الكادحين .

ان الحيلولة دون انتصار الفاشية يتوقف قبل كل شيء على الفاعلية الكفاحية للطبقة العاملة نفسها ، وعلى تكاتف قواها في جيش متاهب موحد ، يناضل ضد هجوم راس المال والفاشية. فالبروليتاريا تستطيع اذا حققت وحدتها الكفاحية ان تشل تاثير الفاشية على الفلاحين والبورجوازية الصغيرة في المدن ، وعلى الشباب والمثقفين ، وتستطيع ان تضع قسما منهم على الحياد وتجذب القسم الاخر الى صفها .

ويتوقف هذا ، ثانيا ، على وجود حزب ثوري قوي يقود كفاح الشغيلة بصورة صائبة ضد الفاشية . ان حزبا يدعو العمال بصورة دائبة الى التراجع امام الفاشية ، وبسمح للبورجوازية الفاشية بتعزيز مراكزها ، مثل هذا الحزب سيقود العمال لا محالة الى الهزيمة .

ويتوقف هذا ، ثالثا ، على السياسة الصائبة التي تتبعها الطبقة العاملة ازاء الفلاحين وجماهير البورجوازية الصغيرة في المدن . فهذه الجماهير يجب ان ينظر اليها على حقيقتها ، لا على الوجه الذي نريد نحن ان نراه . فهذه الجماهير لن تتخلص من شكوكها وتذبذبها الا في مجرى النضال، ولن يرتفع وعيها الثوري وقابليتها الى درجةاعلى الا بالصبر على تذبذباتها المحتومة ، والمساعدة السياسية من جانب البروليتاريا .

ويتوقف هذا ، رابعا ، على يقظة البروليتاريا الثورية والاعمال التي تقوم بها في الوقت المناسب . فعلينا الا نتيح للفاشية ان تباغتنا ، والا نترك لها المبادرة ، وان ننزل بها ضربات حاسمة قبل ان تتمكن من استجماع قواها ، والا نسمح لها بان تتوطد وذلك بان نتصدى لكل خطوة تخطوها ، والا نعطيها فرصة احتلال مواقع جديدة .)

هذه هي الشروط التي يحددها ديمتروف ، للحيلولة دون تنامي القوى المعادية للطبقة العاملة، ومنع وصولها للسلطة . فاين احزابنا الشيوعية من هذه المنطلقات النضالية ؟ وكم نحن بحاجة ماسة لان ندرسها ونستوعبها لنتمكن من وضع حد لكل ما تعاني منه الطبقة العاملة العربيـة من استغلال واضطهاد .

لم يكن ديمتروف ابدا يخشى ولا للحظةواحدة سيف الارهاب ، بل على العكس تماما ، كان ماركسيا – لينينيا ثوريا ، يتحلى دائما بصلابة الشيوعي وعمق ايمانه بقضية الطبقة العاملة وحتمية انتصارها . ففي الوقت الذي كانتفيه احزاب الاشتراكية الديمقراطية ، تقول بالتاخي الطبقي مع البورجوازية ، كان ديمتروف يحرض على النضال ضد البورجوازية . وهو على حق حين يقول : (ان الحزب الشيوعي بسر قدما حتى في الظروف الصعبة ، ويتصلب عوده ويقود نضال البروليتاريا ضد الدكتاتورية الفاشية . وعليه فان احتكار الفاشية السياسي لا بد ان ينهار تحت ضربات التناقضات الطبقية) .

(ان على الطبقة العاملة ان تحسن استغلال التناقضات والصراعات في معسكر البورجوازية، ولكن عليها الا تعلق الامال على سقوط الفاشية من تلقاء نفسها . فالفاشية لن تنهار بصورة اوتوماتيكية . والفاعلية الثورية للطبقة العاملة هي وحدها التي ستساعد على استغلال التناقضات الناشبة حتما في معسكر البورجوازية لزعزعة الدكتاتورية الفاشية وتقويضها .)

ويصف ديمتروف الذين ينحون (باللائمة على العمال لامتشاقهم السلاح) بانهم (اناس جهلاء الى حد فظيع واذناب للبورجوازية ، مثل كارل كاوتسكي (١) ، اقدم نظريي الاممية الثانية) ويستشهد ديمتروف بقول لينين :

(ان مدرسة الحرب الاهلية لا تمر عبثا بالنسبة للشعوب . فهذه مدرسة شاقة لا بد لدورتها الدراسية الكاملة ان تتضمن في ذاتها انتصارات للثورة المضادة واستشراء من جانب الرجعيين الحاقدين ، وتدابير وحشية من جانب السلطة القديمة ضد المتمردين الخ ... ولكن لا

(١) كارل كاوتسكي (١٨٥٤ – ١٩٣٨) واحد من زعماء الاشتراكية – الديمقراطية الالمانيـة والاممية الثانية . في البدء كان ماركسيا ، الا انه ارتد ، فيما بعد ، عن الماركسية . واصبح واحد من ايديولوجيي انحاء اشهازي ، مثلـه احزاب الاممية الثانيه .

(١) ابرز شخصية بورجوازية ثورية في بولونيا، استولى على السلطة بواسطة انقلاب ١٩٢٦ واقامة سلطة دكتاتورية .